

## هل الانسان هو أفكاره وصورته

عشت عمري كله أتعامل مع الأفكار ناسياً أصحابها، أتذكر الفكرة بكامل تفاصيلها وأنسى قائلها، لا أذكر ملحاً من ملامحه الأمر الذي جعلني أسأل نفسي باستمرار هل الأفكار تعيش بمعزل عن أصحابها، هل تكتسب الفكرة وجوداً مستقلاً لها شخصيتها الخاصة بها والتي تربطها أي صلة بقائلها أو كاتبها، هل يمكن لهذه الأفكار أن تخدم أشخاصاً هم على نقيض تام مع قائلها، هل يمكن أن يتبناها أعداء لصاحبها يدافعون عنها ببسالة تصل الى حدود الشهادة. بينما نرى صاحبها يتخلى عنها ببساطة وكأنها جسمٌ غريبٌ كان مودوعاً في داخله لأشخاص آخرين أتوا في الوقت المحدد ليأخذوا وديعتهم. قال ديكارت أنا أفكر إذن أنا موجود. إيماناً منه أنّ الانسان هو أفكاره فاذا خسر الانسان وعيه خسر هويته الانسانية وعاد الى مرتبة ربما تكون عليا بتطورها البيولوجي ولكنها في كل الحالات ليست إنساناً. عشت عمري كله أتعامل مع الأفكار وأحاول أن أنسى أصحابها، أتذكر الفكرة وأضع في الضباب صورة قائلها أو كاتبها، حتى اذا ما تخيلته كانت الصورة أقرب الى الغموض الرومانسي منها الى التشخيص الواقعي، عشت عمري كله أكره الصور المعلقة على حيطان المنازل وفي الأعناق أو فوق قبب الخواتم، كنت أملك شعوراً مبهماً بأن الصورة ليست صاحبها، فالانسان أعظم من أن يحدد بصورة، من أن ينحصر في حيزٍ مكاني ضيق وحيزٍ زمني أضيق، دائماً كنت أعتبر أنّ الانسان هو طبائع عقله وليس شكله، هو مناخه الروحي وليس أعضاء جسده. التواصل معه يتم حدساً بالايحاء والتأمل، وعقلاً بالحوار والبراهين المنطقية، لم أحاول مرة تذكر صورة من صور أصدقائي الذين رحلوا الى حيوات أخرى فقط أذكر كينونتهم، مناخهم العقلي والعاطفي، أذكر اللامحدود في أرواحهم وأنسى ذلك المحدود بزمان ومكان ولحم ودم، أذكر معاني كلماتهم وأنسى حروف الكلمات، هيولى قصائدهم وإيقاعها وأنسى حتى العناوين والمواضيع، تحيرني نفسي، يحيرني هذا الانسان، ما باله يحلم بما وراء النجوم وأرجله تغوص في وحول الواقع اليومي المعاش، يحاول الانعتاق من كل شيء يحده ليعانق المطلق ثم يسيل لعبه إذا رأى رغيف خبز وهو

جائع، ما باله يفكر كثيراً بالعدالة ويمارس أعتى مفاصد الظلم، يعيش تهويمات الحبّ الأفلاطوني ثم يمارس الجنس بأقبح مظاهر الفجور مع بنات الليل المهترئات بالتلوث والقذارة، هذا الانسان العجيب الذي يكتب في الصداقة والحبّ أرقّ القصائد والمقالات ثم يجيز لنفسه أن يعربد بين الكاس والطاس والدفّ والمزمار متهتكاً بالقول والفعل كسيد من أسياد المجهول، هل هذا يعني أنّ النفس الانسانية تعددية وليست أحادية؟ أم أنّ هناك أضداداً تتصارع باستمرار تحت مظلة الوحدة، أم هل نتصور أنّ الشيء لا يكتب له الوجود الحقيقي إلا اذا كان يحوي في أحشائه على بذور ضده، وبالتالي اذا ما حاول الانفصال عن هذا الضد يكون في الحقيقة قد خسر ذاته كوجود عملاني

أيّ أحجية هي هذه الأحجية فنحن نتصور الخير نظرياً بأنه كيان مستقل استقلالاً تاماً عن الشرّ وهو في أقصى مسافات البعد عنه فلهذا مدارٌ ولذاك مدارٌ آخر، ولكن على أرض الواقع الخير يمارس أقصى فاعليات وجوده في أحضان الشرّ وكأنه يتغذى بالشرّ ليتألق كخير، أي عجيبة هذه كيف يتغذى الشيء بنقيضه

هنا أعود لأتصور الانسان وحدة وصراع أضداد، الوحدة هي كينونة هويته كإنسان، وصراع الأضداد هو حركة الطبائع في لعبة الروح مع الجسد ولعبة المحدود مع اللامحدود، وكلنا يعلم أنّ الحركة هي جوهر هذا الوجود فحتى عاقل هذا الوجود والمحرك له حرك الحركات ليتحرك بها. فاعتبر أيها القاريء أنت حركة دائمة. ومن لا يكون بالحركة على زيادة فهو حتماً على نقصان

كمال يوسف سري الدين